

مقالات في اللغة

إعادة توجيه الدرس النحوي من وجهة نظر مهدي المخزومي

د. بوعصابة عبد القادر
المركز الجامعي صالحي أحمد النعامة

الملخص:

من الواضح أن النحو ليس سهلا أبدا، إنه بالتأكيد ليس مروحة للكسالي، وهذا استدعى العديد من اللغويين إلى تجديده أو تيسيره بل وحتى تقويمه. وممن فكر في تقويم النحو مؤلفون كثر. منهم مهدي المخزومي الذي يرى أن تقويم الدرس النحوي يبدأ بتحديد موضوعه، الأمر الذي لم وفه النحاة - بحسب رأيه - حقه من التمهيص والبحث.

وفي هذا المقال ذكر لأطروحاته إلا أنه ليس من غرضي هنا أن أحكم إجابا أو سلبا على هكذا أطروحة؛ فهذا المقال لا يتعدى الوصف والتحليل.

الكلمات المفتاحية: النحو، موضوع النحو، مبنى، معنى، صحيح،

فصيح .

Résumé :

Il est clair que la grammaire autant que science n'est pas facile du tout pour les apprenants, et cela a interpellé beaucoup de linguistes à la renouveler, la simplifier et même à la réformer, et ceux qui ont pensés à la réformer sont nombreux.

Parmi eux on peut citer Mehdi el-Mekhzoumi, qui croit que la réforme de la grammaire commence nécessairement par la circonscription de

son sujet de recherche, un sujet que les grammairiens ont – selon lui – mal compris.

Dans cet article, je cherche à citer et à analyser ses propos plutôt que de les juger positivement ou négativement. En deux mots cet article ne dépasse pas la description et l'analyse.

Mots clés : grammaire, objet d'étude, forme, sens, correcte, éloquent.

Abstract:

Obviously, grammar is not easy at all. It is certainly not a fan for the lazy, and this has called many linguists to renew or facilitate it and even to reform it. Hence, those who have thought of reforming it are numerous.

Among them we can cite Mehdi el-Mekhzoumi, who believes that the reform of the grammar lesson begins with the definition of its research subject, which grammarians have – according to him – misunderstood. In this article, I try to cite and analyze his remarks rather than judging them positively or negatively. In short, this article does not go beyond description and analysis.

Keywords: grammar, object of study, form, meaning, correct, eloquent.

مقدمة:

من الواضح أن النحو ليس سهلاً أبداً، إنه بالتأكيد ليس مريحة للكسالى، وهذا استدعى العديد من اللغويين إلى تجديده أو تبسيطه بل وحتى تقويمه. وممن فكر في تقويم النحو مؤلفون كثرون.

منهم مهدي المخزومي الذي يرى أن تقويم الدرس النحوي يبدأ بتحديد موضوعه، الأمر الذي لم يوفه النحاة – بحسب رأيه – حقه من التمهيد والبحث.

فكان الغرض من هذا المقال أن أتناول بالدرس والوصف والتحليل ما طرحه مهدي المخزومي من أفكار، على أن أعمل على تقريب الفكرة إلى المطالع الكريم لهذا المقال ما أمكن.

وكان الغرض الآخر أن أطرح من خلال هذا المقال أمام زملائي من الباحثين مادة، كلي آذان صاغية لإثراء اتهم بل وتقويمهم.

إعادة توجيه الدرس النحوي:

إذا كان موضوع الدرس النحوي في حس النحاة هو "الجملة"¹، فلمهدي المخزومي رأي آخر... فهو وإن وافق النحاة في أن "الجملة" هي موضوع علم النحو؛ يقول مهدي المخزومي: "إن موضوع الدرس النحوي هو الجملة"² إلا أنه يختلف معهم في حيثيات هذا الموضوع؛ ونقصد بحيثيات الموضوع زوايا النظر فيه؛ يقول: "إن موضوع الدرس النحوي هو الجملة وما يعرض لها من ظروف قولية، وما يعرض لأجزائها في أثناء الاستعمال وفي ثنايا التأليف من عوارض فقد تقع الجملة في سياق نفي أو استفهام أو تأكيد، وقد يعرض على أجزائها عوارض مختلفة؛ من تقديم وتأخير، ومن ذكر وحذف، ومن إضمار وإظهار، ومن معان إعرابية كالفاعلية والمفعولية."³

يقصد مهدي المخزومي بما يعرض لأجزاء الجملة في أثناء الاستعمال وفي ثنايا التأليف من عوارض التقديم والتأخير، والذكر الحذف، والإضمار والإظهار، والمعاني الإعرابية كالفاعلية والمفعولية ... وبما يعرض للجملة من ظروف قولية وقوع الجملة في سياق النفي أو سياق الاستفهام ... - كما فسرهُ هو في النص الذي استشهدنا به -.

وعليه يمكن أن نخلص من ذلك إلى النتيجة التالية: موضوع الدرس النحوي هو "الجملة مبني ومعنى" فللنحو موضوعان: الموضوع الأول هو

"مبنى الجملة" والموضوع الثاني هو "معنى الجملة"؛ والمقصود بالمبنى هو بكل بساطة كيف نبني الكلمات بعضها على بعض في الجملة، وتبعات هذا البناء ... والمقصود بالمعنى ما يؤديه ذلك البناء من معنى ضمن ما بات يعرف بالأساليب.

فلدرس النحوي موضوعان اثنان يقول المخزومي: "والدرس النحوي - كما ينبغي أن يكون - إنما يعالج موضوعين مهمين:

(1) **الموضوع الأول:** الجملة من حيث تأليفها ونظامها، ومن حيث طبيعتها، ومن حيث أجزائها، ومن حيث ما يطرأ على أجزائها في أثناء التأليف من تقديم وتأخير، ومن إظهار وإضمار.

(2) **الموضوع الثاني:** ما يعرض للجملة من معان عامة تؤديها أدوات التعبير التي تستخدم لهذا الغرض، كالتوكيد وأدواته، والنفي وأدواته، والاستفهام/ وأدواته، إلى غير ذلك من المعاني العامة التي يعبر عنها بالأدوات، والتي تملئها على المتكلمين مقتضيات الخطاب، ومناسبات القول.⁴

إن الموضوع الأول والموضوع الثاني وجهان لعملة واحدة؛ لأنهما معا يمثلان وحدة دراسية لا تجزئة فيها؛ لأن الجملة كمفهوم لغوي لا تستغني عن هذا أو ذاك؛ يقول: "لقد سبق أن فصلنا القول في الجملة، وتوصلنا إلى أن الجملة أساس التعبير، والصورة اللفظية الصغرى التي تطوى في ثناياها فكرة تامة صدرت عن نفس المتكلم لتصل بها إلى مخاطب منتظر".⁵

فالكلام حتى في عرف النحاة هو "اللفظ المفيد"⁶ ولن يكون كذلك أي لن يكون مفيدا - فيما يراه المخزومي طبعاً - إلا بمراعاة مناسبات القول: "والجملة خاضعة لمناسبات القول، وللعلاقة بين المتكلم والمخاطب، ولا يتم التفاهم في أية لغة إلا إذا روعيت تلك المناسبات، وأخذت العلاقة بين

أصحابها بنظر الاعتبار، ولن يكون الكلام مفيدا، ولا الخبر مؤديا غرضه ما لم يكن حال المخاطب ملحوظا ليقع الكلام في نفس المخاطب موقع الاكتفاء والقبول.⁷

ودليل المخزومي على أن الكلام لا يكون مفيدا دون مراعاة مناسبات القول كلام أهل المعاني -فعلم المعاني هو نظم الكلام وتركيبه على نسق معين يراعي فيه القائل مقتضى الحال-⁸؛ يقول: "ومن أجل هذا تكلم أصحاب علم المعاني، وأسهبوا في مقتضى الحال، وظاهر الحال، عرفانا منهم بما للكلام من ظروف قولية تتحكم فيما يصدر عن المتكلم من كلام ينقل به أفكاره إلى المخاطب، وبما يكتنف الكلام من أسلوب تمليه تلك الأحوال على المتكلم إملاء."⁹

ولكن مثل هذا الطرح يستدعينا لنتساءل: هل يقصد مهدي المخزومي أن يجعل من علمين مستقلين "علم النحو" و"علم المعاني" علما واحدا وتحت مسمى واحد هو "علم النحو"، وما المسوغ لذلك؟

لاشك أن "الجملة الصحيحة" هي موضوع علم النحو؛ والمقصود بالجملة الصحيحة بعبارة تقرب المعنى للقارئ الكريم لهذا المقال أن الجملة الصحيحة هي التي سلم مبناها من اللحن تقديمًا وتأخيرًا، وإظهارًا وإضممارًا، وذكرًا وحذفًا وإعرابًا كذلك... ولكن الذي يتبناه المخزومي أن "الجملة الصحيحة" لا بد أن يسلم ليس فقط مبناها بل ومعناها كذلك، كيف ذلك؟ أن يسلم معناها يعني وبكل بساطة أن يوافق المقال المقام وهو تعريف "الجملة الفصيحة". وعليه - طبعًا في حس المخزومي - لن تكون الجملة صحيحة حتى تكون فصيحة! وإذا كان ذلك كذلك فموضوع علم النحو هو موضوع علم المعاني وهو "الجملة الصحيحة والفصيحة" ولا داعي إذن لفصل العلمين بل يصبح من الضروري أن يكون التناول والدرس واحدا. إذ يصبح مثل هذا الفصل فصلا مفتعلا؛ يقول المخزومي:

"والذي أزعجه هو أن الجملة الصحيحة لغويا ونحويا هي الجملة الفصيحة عند أهل المعاني، لا فرق بين هذي وتلك، لأن الشرط الذي أخذ به فصاحة الجملة شرط يؤخذ به في صحتها، فإذا كانت الجملة مؤلفة من كلمات صحيحة مستوفية لكل ما يتطلبه (الصرف)، وإذا كانت الكلمات مؤلفة من أصوات مؤتلفة خلو من كل ما يسيء إلى فصاحتها، من تتافر بين الأصوات، مما قرر في دراسة الأوائل للأصوات اللغوية شرطا لا بد منه لصحة الكلمة بقيت الجملة مع ذلك تفتقر إلى أهم مقومات الصحة، وهو مطابقتها متطلبات المناسبات ومقتضيات الأحوال. ولن تكون الجملة صحيحة إذا لم يراع ذلك فيها، فالدراسة إذن واحدة، والموضوع واحد.¹⁰

بالنسبة للمخزومي هذا دليل واضح على أن الفصل بين علم المعاني وعلم النحو فصل مفتعل. إلا أن رأيه هذا يثير العديد من الإشكالات. فلو سلمنا له جدلا بذلك، يصعب علينا أن نتصور أن المخزومي قد اهتدى فعلا إلى ما غاب عن النحاة جميعا، وأنه حقا قد بصّر فعلا بما لم يَبصُرُوا به!

إلا أن للمخزومي . فيما يرى . أدلته على ما ذهب إليه ومن أقوال النحاة أنفسهم، أو لنقل أقوال بعض النحاة، الذين وصفهم المخزومي بالنابيهين أمثال ابن جني والشيخ الرضي وابن هشام الأنصاري والزمخشري والخطيب وعبد القاهر الجرجاني؛ يقول المخزومي: "كان الزمخشري يقول - وهو يعالج أسلوب التوكيد في دراسته النحوية - : "إنك إذا كررت فقد قررت المؤكد، وما علق به في نفس السامع، ومكنته في قلبه، وأمطت شبهة ربما خالجه، أو توهمت غفلة، أو ذهبا عما أنت بصده/ فأزلته، وكذلك إذا جئت بالنفس والعين فإن لظان أن يظن حين قلت: (فعل زيد) أن إسناد الفعل إليه تجوز، أو سهو، أو نسيان" فلم يغيب عن الزمخشري ما بين المتكلم والسامع من علاقة، ولم ينس متطلبات المناسبات القولية،

ولا مقتضيات الحال، بل بنى معالجته هذا الموضوع على أساس واع لهذا كله.

ويتناول الرضي في شرحه الكافية هذا الموضوع، فيعالجه مثل هذه المعالجة، فيصرح بأن الغرض الذي وضع له التوكيد أحد ثلاثة أشياء:

- 1- أن يدفع المتكلم ضرر غفلة السامع عنه.
- 2- وأن يدفع ظنه بالمتكلم الغلط.
- 3- وأن يدفع المتكلم عن نفسه ظن السامع به تجوزا.¹¹

واضح مما نقله المخزومي أن كلام الزمخشري والرضي تعدى "الجملة الصحيحة" إلى "الجملة الفصيحة" فكلامهما من صميم علم المعاني وهو في كتب كان المفروض بها أن لا تتعدى الصحيح إلى الفصح لأنها في إطار الدرس النحوي، وهذا دليل - فيما يراه المخزومي - على أن موضوع علم النحو وعلم المعاني واحد لا يقبل التجزئة؛ يقول المخزومي: "ففي ما أثبتته الزمخشري والرضي هنا، نص على الالتزام بمراعاة حال السامع، وملاحظة ما بينه وبين المتكلم من علاقة، وإشارة واضحة إلى أهمية مراعاة المناسبات القولية عند تعبير المتكلم عما في نفسه من أفكار تعبيراً صحيحاً وأفيا بكل متطلبات الفصاحة التي ظن الدارسون أنها شيء فوق صحة الكلام."¹²

ودليل آخر، هذا التناول عند الزمخشري والرضي في الدرس النحوي لا يختلف عن تناول الخطيب في الدرس البلاغي؛ فهو يدلك على أن الموضوع واحد لأن التناول واحد؛ يضيف المخزومي قائلاً: "ولم تختلف معالجة هذين الدارسين النابهين عن معالجة الخطيب في إيضاحه موضوع التوكيد، فقد كان الكلام الفصح عنده ما اقتصر فيه من التركيب على قدر الحاجة، وما روعي فيه حال المخاطب، فإن كان المخاطب خالي الذهن استغنى المتكلم عن مؤكدات الكلام، وإن كان المخاطب

طالباً منتظراً حسن تقوية الكلام بمؤكد، وإن كان منكراً، أو حاكماً بخلاف ما في نفس المتكلم وجب/ تأكيد الكلام بحسب ما تشعر به حال المتكلم من شدة في الإنكار، أو ضعف فيه.¹³ وهو نفسه ما نقله الجرجاني¹⁴؛ يقول المخزومي: "ونقل الجرجاني عن ابن الأنباري أنه قال: "ركب الكندي المتفلسف إلى أبي العباس (لعله يعني أبا العباس المبرد)، وقال له: إني لأجد في كلام العرب حشواً. فقال له أبو العباس: في أي موضع وجدت ذلك؟ فقال: أجد العرب يقولون: عبد الله قائم. ثم يقولون: إن عبد الله قائم، ثم يقولون: إن عبد الله لقائم، فالألفاظ متكررة والمعنى واحد. فقال أبو العباس: بل المعاني مختلفة، لاختلاف الألفاظ، فقولهم: عبد الله قائم إخبار عن قيامه، وقولهم: إن عبد الله قائم، جواب عن سؤال سائل، وقولهم: إن عبد الله لقائم، جواب عن إنكار منكر قيامه، فقد تكررت الألفاظ لتكرر المعاني"¹⁵.

ولكن يعترف المخزومي أن تلك الأقوال كانت معزولة، وكأنها غريبة عن الدرس النحوي، يقول: "وإنك لتجد كثيراً من هذه الأقوال التي تؤكد هذا مبنوثة في كتب النحو، ولكن هذه الأقوال كانت وكأنها معزولة لا تجد لها ظلاً في معالجة النحاة أصول هذه الدراسة ومسائلها، وكان لإهمال النحاة هذه الملاحظة أثر في فصل دراسة النحو عن دراسة المعاني، وفي ذهاب كل فريق من الدارسين بشطر من شطري الدراسة الواحدة، وفي ظهور تعبيرات ومصطلحات مصطنعة لتقسيم دراسة واحدة لها موضوع واحد هو الجملة، من مثل: الصحيح والفصيح . ويقصدون بالصحيح ما كان صحيحاً نحوياً، وبالفصيح معنى يزيد على الصحة النحوية، من مطابقة الكلام لمقتضى الحال، أو مطابقته لمناسبات القول."¹⁶

ولنا أن نتساءل عن السبب في كل ذلك؟ لماذا اقتصر النحاة على تلك الإشارات فجاءت معزولة في الدرس النحوي؟ قد يقول قائل: لأنها بكل

بساطة ليست من موضوع دراستهم! لأنها لو كانت كذلك لاستقصوا فيها القول ولقتلوا بحثا. قد يكون مثل هذا الطرح سليما ولكن للمخزومي رأي آخر، فهو يؤكد أن النحاة كانوا يدركون أن دراسة المعنى من صميم علم النحو؛ يقول: "كان النحاة يدركون هذا، ويعرفون ما كان أصلا، وما كان محمولا على الأصل"¹⁷.

فهم يعلمون أن ذلك من صميم الدرس النحوي، ولكن هذا لا يجيب على السؤال: لماذا اقتصروا على تلك الإشارات؟ يرى المخزومي أن النحاة إنما صُرفوا عنه مع علمهم بأنه من صميم موضوعهم لسبب آخر هو "المنهج الفلسفي" الذي طبع الدراسة النحوية وجعلهم يتخبطون في تناولهم الظاهرة اللغوية؛ يقول: "وإذا تأيد لك أن موضوع هذه الدراسة هو الجملة ظهر لك مدى تخبط النحاة، ومدى ما أصيبت به هذه الدراسة الخصبة من جذب، ومدى ما جنوا به عليها من تشتيت أوصالها، وتقطيع موضوعاتها، وفصل بعضها عن بعض، إرضاء لما كانوا يطمحون إليه من خلط منهجين لا صلة لأحدهما بالآخر، منهج فلسفي كلامي ومنهج لغوي نحوي."¹⁸.

ولكن ما الذي يقصده المخزومي بالعبارة "المنهج الفلسفي"؟ من دون شك إذا عدنا للظروف التي ذكر فيها الباحث أطروحته يمكن أن نخمن أن المقصود بالمنهج الفلسفي يمكن اختزاله في العبارة "نظرية العامل"¹⁹؛ يقول المخزومي - وهو يتحدث عن الأساليب وأدواتها: "ولكنهم لم يدرسوها إلا مفرقة في أبواب مختلفة، أو لم يدرسوها إلا لما لها من تأثير - كما يزعمون - فيما بعده، تأثير العامل في المعمول، أو بعبارة أخرى / لعلها أوضح، لم يدرسوها إلا لأنها تؤدي في نظرهم وظيفة (العامل) الذي كان محور دراستهم، ...".²⁰.

لكل ذلك يرى المخزومي أنه بات واضحا أن النحو يحتاج فعلا إلى إعادة توجيه في موضوعه بدراسة "الجملة الصحيحة والفصيحة" وفي منهجه بدراسته ضمن بعده "اللغوي لا الفلسفي"!

خاتمة:

باختصار يمكن أن نقول أن مهدي المخزومي يرى أن مشكلة النحو في النحاة؛ لأنهم عجزوا أن يحددوا موضوع الدرس النحوي، وطبعا كان لهذا العجز بل والتخبط تبعاته. فقد جعل "المنهج الفلسفي" أو "نظرية العامل" بالإضافة إلى "التعليل" من الدراسة النحوية دراسة هزيلة وكسيحة- كما وصفها هو-؛ وعليه بات من الضروري أن يعود الدرس النحوي لطبيعته موضوعا ومنهاجا؛ وهذا استدعى الباحث إلى تأليف كتابه "في النحو العربي نقد وتوجيه" يقول المخزومي: "على هذا الأساس بنيت نقدي أعمال النحاة، ومناقشتي أحكامهم، وعليه حاولت توجيه الدرس النحوي إلى الوجهة اللغوية التي أراها أشبه بطبيعته، ومن الله أستمد العون"²¹.

الإحالات والهوامش

1. ينظر : أبو حيان الأندلسي الغرناطي، النكت الحسان في شرح غاية الإحسان، تحقيق ودراسة عبد الحسين الفتلي، بيروت/ لبنان، مؤسسة الرسالة، الطبعة رقم 1، 1985، ص 31.
2. مهدي المخزومي، في النحو العربي نقد وتوجيه، بيروت/ لبنان، دار الرائد العربي، الطبعة الثانية، 1406 - 1986، ص 33.
3. المصدر نفسه، ص 33.
4. المصدر نفسه، ص 17 - 18.
5. المصدر نفسه، ص 225.

6. ينظر: محمد بن مصطفى القوجوي، شرح قواعد الإعراب لابن هشام، دراسة وتحقيق إسماعيل مروة، دمشق/سورية، دار الفكر، 1997، ص12. (و) بهاء الدين عبد الله بن عقيل العقيلي الهمداني المصري، شرح ابن عقيل، ج1، بيروت/ لبنان، دار القلم، ص14. (و) ابن الناظم أبو عبد الله بدر الدين محمد بن جمال الدين بن مالك، شرح الألفية لابن الناظم، تحقيق باسل عيون السود، بيروت/ لبنان، الكتب العلمية، الطبعة رقم 1، 1420 - 2000، ص5.
7. مهدي المخزومي، في النحو العربي نقد وتوجيه، ص225.
8. ينظر: الخطيب القزويني، الإيضاح في علوم البلاغة، بيروت/ لبنان، دار الكتب العلمية، ص15. (و) السكاكي، مفتاح العلوم، بيروت/ لبنان، دار الكتب العربية، ص 161. (و) أحمد الهاشمي، جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع، صيدا بيروت، المكتبة العصرية، ص7.
9. مهدي المخزومي، في النحو العربي نقد وتوجيه، ص225.
10. المصدر نفسه، ص226.
11. المصدر نفسه، ص226 - 227.
12. المصدر نفسه، ص227.
13. المصدر نفسه، ص227 - 228.
14. أبو بكر عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، القاهرة/ مصر، مكتبة الخانجي، ص 242.
15. مهدي المخزومي، في النحو العربي نقد وتوجيه، ص228.
16. المصدر نفسه، ص226.
17. المصدر نفسه، ص231.
18. المصدر نفسه، ص37.
19. ينظر: ابن مضاء القرطبي، كتاب الرد على النحاة، تحقيق شوقي ضيف، القاهرة/ مصر، دار المعارف، ص76. (و) تمام حسان، اللغة العربية بين المعيارية والوصفية، القاهرة/ مصر، عالم الكتب، 1421 - 2001، ص55.

- (و) إبراهيم مصطفى، إحياء النحو، القاهرة/ مصر، الطبعة رقم 2، 1413/1992، ص22.
20. مهدي المخزومي، في النحو العربي نقد وتوجيه، ص231-232.
21. المصدر نفسه، ص 18.

المصادر والمراجع:

- ابن الناظم أبو عبد الله بدر الدين محمد بن جمال الدين بن مالك، شرح الألفية لابن الناظم، تحقيق باسل عيون السود، بيروت/ لبنان، الكتب العلمية، الطبعة رقم 1، 1420-2000.
- ابن مضاء القرطبي، كتاب الرد على النحاة، تحقيق شوقي ضيف، القاهرة/ مصر، دار المعارف.
- أبو بكر عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، القاهرة/ مصر، مكتبة الخانجي.
- أبو حيان الأندلسي الغرناطي، النكت الحسان في شرح غاية الإحسان، تحقيق ودراسة عبد الحسين الفتلي، بيروت/ لبنان، مؤسسة الرسالة، الطبعة رقم 1، 1985.
- أحمد الهاشمي، جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبدیع، صيدا بيروت، المكتبة العصرية.
- إبراهيم مصطفى، إحياء النحو، القاهرة/ مصر، الطبعة رقم 2، 1413/1992.
- تمام حسان، اللغة العربية بين المعيارية والوصفية، القاهرة/ مصر، عالم الكتب، 1421-2001.
- الخطيب القزويني، الإيضاح في علوم البلاغة، بيروت/ لبنان، دار الكتب العلمية.

- السكاكي، مفتاح العلوم، بيروت/ لبنان، دار الكتب العربية.
- محمد بن مصطفى القوجوي، شرح قواعد الإعراب لابن هشام، دراسة وتحقيق إسماعيل مروة، دمشق/سورية، دار الفكر، 1997.
- بهاء الدين عبد الله بن عقيل العقيلي الهمداني المصري، شرح ابن عقيل، ج1، بيروت/ لبنان، دار القلم. مهدي المخزومي، في النحو العربي نقد وتوجيه، بيروت/ لبنان، دار الرائد العربي، الطبعة الثانية، 1406 - 1986.